



عناصر الثقافة وفق منهج مالك بن نبي Elements of culture according to the approach of Malik bin Nabi

العبد وارم*¹ ملك الحديدي²

¹ جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج (الجزائر).

البريد الإلكتروني المهني: Laid.ouarem@univ-bba.dz

² محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج (الجزائر)

البريد الإلكتروني: malakmk94@yahoo.com

تاريخ النشر
2022/04/16

تاريخ القبول
2022/02/03

تاريخ الإيداع
2022/10/21

الملخص: تتناول هذه الدراسة عناصر الثقافة وفق منهج مالك بن نبي، نحاول من خلالها عرض وتبسيط عناصر الثقافة باعتبارها بُعداً من أبعاد الحضارة، وذلك ضمن مساراتها الأربع: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والتوجيه الفني، حيث نُعيد من خلالها النظر في الظواهر التي أصبحت متداولة بطريقة تحيد البوصلة الثقافية والتربوية عن وجهتها الصحيحة، وعن هدفها الأساسي؛ المتمثل في بناء حضارة إسلامية متكاملة.

الكلمات المفتاحية: عناصر الثقافة، المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، التوجيه الفني.

Abstract: This study deals with the elements of culture according to the approach of Malek Bennabi, through which we try to present and simplify the elements of culture as a dimension of civilization, within its four tracks: the ethical principle, aesthetic taste, practical logic and artistic guidance, through which we reconsider the phenomena that have become circulated in a manner The cultural and educational compass deviates from its correct direction and from its main goal; of building an integrated Islamic civilization.

Keywords: Elements of culture, moral principle, aesthetic taste, practical reasoning, artistic direction.

مقدمة:

حاول مالك بن نبي تحديد معالم الحضارة بدءاً من تحديد عناصر الثقافة؛ والتي لا يمكن أن تقوم الحضارة إلا باجتماعها، فالحضارة تتمثل في (الإنسان، التراب، الوقت)، باعتبار تلك العناصر الثلاث أبرز مقوماتها، بينما الثقافة في الواقع أسلوب الحضارة، تُوجّه الإنسان عبر المسارات الأربع: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والتوجيه الفني، وذلك حتى يتسنى للمجتمع ركب عجلة الحضارة والتنمية؛ بتفاعل مقومات الحضارة من جهة، ومسارات الثقافة من جهة أخرى.

ووفقاً لما تبينناه من المنهج الذي تصوره مالك بن نبي قمنا بتسليط الضوء على عناصر الثقافة، وذلك بالتركيز عليها في الإطار الكلي للحضارة، وبالتالي محاولة عرضها وتحليلها بصورة موضوعية ، حيث تهدف الدراسة بشكل أساسي إلى توضيح عناصر الثقافة بطريقة مبسطة وواقعية، والمساهمة في فهم طرح مالك بن نبي بناءً على الواقع الذي نعيشه، ومحاولة مينا في الإجابة عن محور الموضوع ألا وهو التعرف على عناصر الثقافة بالرجوع إلى أفكار ومنهج مالك بن نبي.

تعريف الثقافة:

تُعتبر الثقافة ذلك النسيج الكلي لتوجهات المجتمع من عادات وتقاليد وقيم وأفكار، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة (بن نبي، 2013، صفحة 89)، وهي المسؤولة عن تكوين الفرد الذي ينتمي إلى ذلك المجتمع، لا يمكن بطبيعة الحال أن تنتج ثقافة من العدم، ولا يمكن أيضاً أن يفلت فرد من أفراد المجتمع من سيطرة الثقافة وقيودها الاجتماعية التي ترجع إلى أصولها التاريخية، فهي المعيار التي نُقيّم من خلالها المجتمعات، ونعي من خلالها دور ووظيفة كل فرد.

ومن هذا المنطلق، لا بد من توجيه تلك الثقافة وفقاً لخصوصية كل مجتمع، فكرة التوجيه التي نعنيها هي بتجنب الإسراف في الجهد والوقت (بن نبي، 2013، صفحة 84)

وذلك بتحريك بوصلة التاريخ نحو الهدف المتمثل في البناء الحضاري، نحاول هنا التركيز على القضايا الأساسية التي تشغل المجتمع تحت الإطار الكلي للثقافة والتربية، منها المؤسسات التربوية كالأُسرة والمدرسة، إضافة إلى الصناعة واللغة ومختلف المواضيع الثقافية التي تُشكل بمجموعها التكامل بين عناصر الثقافة.

1. المبدأ الأخلاقي

يعتبر مالك بن نبي أن المبدأ الأخلاقي عنصراً أساسياً للثقافة، فلم يُنقص من المبدأ الأخلاقي قيمته كعنصر أساسي من عناصرها، حيث وجد مالك بن نبي أن الثقافة لا يمكنها أن تقوم إلا إذا اشتملت على المبدأ الأخلاقي، ذلك المبدأ الذي يُعدّ وجوده ضرورة وحمية اجتماعية، سارت الأمم من خلاله إلى طريق الرقي في بناء شبكة علاقاتها الاجتماعية على أسس قوية ومتينة تحكم تصرفات الأفراد فيما بينهم. بيد أن هذا المبدأ تحديداً لم يكن أساسياً في كافة المجتمعات، فقد اعتمدت بعضها على معيار الجمال لقياس الحضارة كالمجتمعات الغربية، بينما جعلت المجتمعات العربية من المبدأ الأخلاقي أداة القياس الأولى في تحديد الحضارة، يليها الذوق الجمالي في مرتبة لاحقة، حيث يرجع هذا التفاوت والاختلاف إلى طبيعة الثقافة وأصولها التاريخية.

يُعتبر الارتقاء بالأخلاق إلى درجة السمو هو الهدف المنشود للحضارة الإسلامية، وذلك لضبط السلوك الإنساني وإعادة تنظيمه وتعديله وفقاً لمدى مطابقته لثقافة المجتمع، وهذا ما يبرر قول مالك بن نبي (بقدر ما تكون هذه الثقافة متطورة فإن البذور الأخلاقية والجمالية تكون أقرب إلى الكمال، حتى تصبح بالتالي القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع، والدستور الذي تقوم عليه حضارته) (بن نبي، 2013، صفحة 107) وذلك باعتبار القيمة الأخلاقية مُغذية للطابع الإنساني لدى الفرد والمجتمع، تليها بذلك القيمة الجمالية.

تشغل القيمة الأخلاقية حيزاً لا بد لنا التطرق إليه في ثنائية الأصالة والمعاصرة، أصالة العودة إلى القيم الأخلاقية، ومعاصرة الحديث منها، حيث يظهر هذا الصراع -إن صحّ القول- على أكثر من شاكلة، نعتبر أن أهمها وأبرزها مسألة اللغة؛ اللغة التي تعكس القيمة الأخلاقية للمجتمع ومدى التمسك بالهوية الثقافية لديه، متى ما تخلى المجتمع عنها، تخلى بذلك عن جزء كبير من أصالته من ناحية، وأضاع مساره الحضاري من ناحية أخرى، وهذا ما أكد عليه الإمام محمد البشير الإبراهيمي في قوله اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى (الإبراهيمي، 2008، صفحة 134)، تأكيداً منه على وظيفة اللغة الأولى في المحافظة على وحدة التماسك الاجتماعي، وهذا من منطلق أن من أضاع أو حارب اللغة بشكل أو بآخر يحارب بالنتيجة الثقافة التي انطلقت منها.

تعددت أشكال محاربة اللغة ونعني هنا اللغة العربية تحديداً، إن كان ذلك بدافع شخصي أو اجتماعي، وبشقيهِ المقصود وغير المقصود، وذلك بتبني أفكار الغير؛ أيّ أفكار العالم الغربي، فهل بمقدور العالم العربي صناعة الأفكار لا تبني لغاتها، يبقى هذا الإشكال قائماً ما دام استيراد الأفكار ولغاتها بالمقابل قائماً.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن تخلي المجتمعات العربية عن لغتها أو أي مرتكز يمثل أحد مرتكزات الثقافة بدعوى المعاصرة، ليس إلا تخلياً عن جذور الأصالة التي ينتمي إليها هذا المجتمع، بل وأكثر من ذلك، حيث ينبئ هذا بوجود استعماري فكري لم يتخلص منه المجتمع منذ زمن بعيد، وهنا لا نعني الابتعاد عن معاصرة ما هو جديد لأن كل جماعة لا تتطور، ولا يعترئها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع (بن نبي، 2013، صفحة 16)، بينما ما ندعوا إليه هو التجديد الثقافي مع الحفاظ على الأصيل منه.

وبالرجوع إلى فكرة المبدأ الأخلاقي، يرى مالك بن نبي أن هذا المبدأ يُشكّل التوجه العام للمجتمع حيث يحدد بدوره الدافع والغاية من وجوده، بينما الذوق الجمالي يقوم بصياغة صورته، وهذا ما سنتطرق إليه في مضمون الفكرة الجمالية.

2- الذوق الجمالي

يرتبط الذوق الجمالي بمضمون الفكرة بحد ذاتها، فإن كانت الأفكار التي نحملها تجاه الأشياء أفكاراً إيجابية، فهذا سينطبع فوراً على نظرتنا لتلك الأشياء، والعكس صحيح بالنسبة للأفكار السلبية، فلا يمكن لصور قبيحة أن توحى بالخيال الجميل على حسب تعبير مالك بن نبي، وهذا يرتبط بالمحيط أي المجتمع عندما يطرح الأفكار بصورة معينة سواءً كانت إيجابية أو سلبية، ومدى تقبل عقلنا الباطني لتلك الفكرة وكيفية التعامل معها في الواقع.

إذن نجد أن جزء من عالم الأفكار الذي يتكون عند الفرد هو مجموعة الأفكار التي يُملئها عليه المحيط الذي يعيش فيه وينشأ عليها، فتصبح بمثابة المسلمات بالنسبة إليه، وكل فعل يقوم به يكون مبنياً على تلك الأفكار بشكل أو بآخر.

فالذوق الجميل يطبع في نفس الفرد النزوع إلى الفضيلة والإحسان، كما أن أثر تلك الصورة يُطبع في تفكير الإنسان وتعامله، بل وأبعد من ذلك، حيث يكون حاضراً في أبسط التفاصيل التي يمارسها، وكذلك بالنسبة للذوق القبيح الذي يجعل الإنسان يرى بعين القبح والتشاؤم لكل ما حوله، ومن المؤكد أن كلاهما يرتبط بطرق وأساليب العيش، ويظهر جلياً في حالة الفرد سواءً الداخلية أو الخارجية، وحتى في أساليب حل مشكلاته.

ولا شك أنه بتطرقنا إلى الذوق الجمالي فإننا حتماً سوف نذهب إلى نمط اللباس في المجتمع، فإن التوازن الأخلاقي في مجتمع ما منوط بمجموعة من العوامل الأدبية والمادية؛ والملبس هو أحد تلك العوامل (بن نبي، 2013، صفحة 132)، باعتباره يشكل الفارق في النمط العام لأفراد المجتمع، فحينما يجتمع الأفراد بتقاليدهم على لباس معين في مجتمع ما،

فإن ذلك يعكس بصورة واضحة تصرفاتهم وفقاً لهذا اللباس، ففي بلاد الشام قديماً كان هناك ما يسمى بـ"الطربوش" وهي قبعة حمراء ذات شكل معين، ترمز إلى من يرتديها أنه من أهل المدينة، أما "الكوفية" وهي قطعة من القماش المزخرف توضع على الرأس أيضاً، ترمز إلى من يرتديها انتماءه لأهل الريف، ووفقاً لتلك الثنائية كانت تتعكس الكثير من الحيشات، فلغة الكلام كانت تختلف بمجرد اختلاف اللباس ومحيط العيش، وكذلك المهنة، فقد كان أهل المدينة يتميزون باشتغالهم الوظائف الحكومية والمهن العلمية والاقتصادية والهندسية وغيرها، التي تحفظ ذلك الطابع المدني لطريقة عيشهم وفقاً لنمط لباسهم، أما بالنسبة لأهل الريف فقد كانوا يتميزون بالمهن اليدوية والحرفية كالزراعة والفلاحة، والتي تحفظ لهم أيضاً طابعهم الريفي، إذن الملبس هنا يحكم تصرفات الإنسان إلى حد بعيد (بن نبي، 2013، صفحة 99)، ليس تصرفاته فحسب، إنما نمط معيشتة ككل.

وبالمثل، فإذا ذهبنا إلى نوعية اللباس التقليدي في الدول المغاربية، "الحايك" على سبيل المثال، وهو لباس من القماش الأبيض يغطي جسد المرأة ووجهها، فقد كان معياراً ثقافياً ورمزاً وطنياً يعكس مظاهر الاحتشام والستره لمن ترتديه، ومن جانب آخر نجد أن صفة الاحتشام تدفع بالمرأة إلى الإقبال على هذا النوع من الزي التقليدي.

وبمثل ليس ببعيد عن واقعنا الحالي، فإننا نرى بشكل جليّ كيف أن اللباس يتحكم بأسلوب عيش الأفراد، ومن زاوية أخرى فإن تبديل نمط اللباس بهدف تبديل نمط الحياة واردٌ أيضاً، فالمجتمعات على اختلافها لديها ما يسمى باللون المحلي (local color)؛ أي اللون السائد والغالب محلياً، إن كان ذلك فنياً أو سينمائياً أو حتى كطابع كتابي، وإذا قمنا بإسقاط هذه الفكرة على الملبس، فنراها مقبولة وطبيعية جداً ومُتَّبَعَة في معظم المجتمعات، حيث يتبع الأفراد مجتمعاتهم حتى في أسلوب اللباس، فإننا نختار لون ملابسنا لتحسين

منظرنا في أعين الآخرين (بن نبي، 2013، صفحة 32)، وهذا راجع لحاجة الإنسان للقبول الاجتماعي والشعور بالانتماء والتقدير.

بينما ما نراه حالياً، أن فئة الشباب -ذكوراً وإناثاً- غالباً ما يميلون إلى تغيير نمط لباسهم لفرض أسلوب حياة معين على المحيطين بهم، تلك الأنماط التي اصطلح عليها في عالمنا العربي بالنمط الغربي، يوحي للمتحدث إليهم على أنهم أفراداً ذوا عقلية منفتحة (open minded) ومتحضرة، إذن فهنا لا يتحكم نمط اللباس ولونه أو تصميمه بصاحبه وحسب، إنما بطريقة التعامل مع هذا الشخص من قبل أي فرد يلتقيه، فبيث بذلك رسائل خفية توحي بأنه ضد التقاليد أو يبحث عن اختلاف ما يلفت به الأنظار، فتصبح في هذه الحالة كما نرى مؤخراً أن أسلوب التعامل بحد ذاته تأثر، ولا شك أن هذه الثقافة الدخيلة بدعوى الحضارة والانفتاح، ليست سوى استيراداً لأفكار الغير دون تمحيصها وجعلها متوافقة مع خصوصيات المجتمع الأصلي.

بل ونرى تيارات فنية أصبحت حديثاً متداولة أو أعيد إحيائها، كالتوجه نحو ما يسمى بفلسفة فن التصوير العاري، ذات الأصل والمنشأ الغربي، ويقول في هذا الصدد مصطفى محمود قاصداً في حديثه مدينة باريس "الجسم العاري هنا لغة فنية مثل الأدب والموسيقى لها نقاد، وهو أيضاً سلعة لاجتذاب أموال السائح الشرقي" (محمود، 2017، صفحة 43) باعتبار أن السائح الشرقي لا يراها بقالب ثقافي أو بمعانٍ مجردة. وعلى إثر ذلك نرى ما يُنشر من تماثيل في المتاحف أو التمسك بها متناثرة في بعض شوارع الدول التي كانت مستعمرة من قبل فرنسا، أو حتى بتداولها فنياً إن كان ذلك سينمائياً أو تشكيمياً. فأصبحت هذه التوجهات التي يُقبل عليها فئات تدّعي التحضر والتقدم إن كانوا من المجتمعات الإسلامية أو حتى المحافظة بشكل عام، ليست سوى سبيلاً لإثبات ذلك لأنفسهم ومجتمعاتهم بالخروج عن التقليد والثقافة السائدة، باعتبار ذلك معياراً للرقى والذوق الجمالي الرفيع، بل أنه فعلياً يُشكّل خلافاً داخلياً في نظرتهم نحو الأشياء والأصالة العامة.

وذلك بداية في افتخارهم ونسبهم لثقافة وذوقاً جمالياً لا يتذوقون جماله حتى، ومن مبدأ أنه لا يعكس قيمهم وتقاليدهم، بحيث تم إقحام ذلك كله في ثقافتنا بدلاً من استبداله بتراث وفن وليد ثقافتنا يراعي خصوصيتنا الاجتماعية والعرفية والعقائدية.

إذن نلاحظ أهمية التوجيه الجمالي في تغيير مسار المجتمع بأكمله، في حال لم يتم ضبطه، إن كان على أي مستوى من المستويات الاجتماعية والثقافية والدينية والقيمية، حيث أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال (بن نبي، 2013، صفحة 100) وفرض احترامنا على الشعوب الأخرى مرتبط بطريقة مباشرة بمدى تمسكنا بهويتنا، كما أن ما نكنه من احترام وتقدير لغيرنا مرتبط بمدى تمسك الشعوب الأخرى بهوياتهم.

3- المنطق العملي

يقصد مالك بن نبي بالمنطق العملي ارتباط العمل بوسائله ومقاصده (بن نبي، 2000، صفحة 87)، إن المشكلة بالنسبة للشخص المسلم لا تكمن في الفكرة بحد ذاتها، وإنما ما يفتقده المسلم هو منطق العمل، فنجد أن الشخص بإمكانه طرح الأفكار ولكن ليست لديه القابلية أو القدرة على تجسيدها، وهنا طرح مالك بن نبي مقارنة بين الشخص المسلم والأوروبي، فنجد أن الأوروبي يأتي بالفكرة ويجسدها في معظم الأحيان، أما الشخص المسلم فيأتي بالفكرة ويكتفي بتصورها.

ولو أسقطنا هذا المثال على المناهج التعليمية وطرق التدريس، نجد أن المدارس الغربية غالباً ما تعتمد على التوجه الحديث في التعليم، والذي يقوم على التعلم النشط وأساليب التدريب وإشراك التلميذ في العملية التعليمية، مما يمنحه القدرة على تخزين المعلومة في الذاكرة طويلة المدى من خلال تطبيق الأفكار النظرية في الواقع، فيمكنه ذلك من ممارسة النشاط التعليمي على أكمل وجه، اقتداءً بمقولة الحكيم الصيني (كونفوشيوس): "قل لي وسوف أنسى، أرني ولعلي أتذكر، أشركني وسوف أفهم". وتغيب

هذه الأساليب في معظم المؤسسات التعليمية والتربوية في الدول العربية حيث يُعتبر التلميذ مجرد بنك لتخزين المعلومات يجب عليه أن يسترجعها يوم الامتحان، تعتمد معظمها على أسلوب التلقين؛ وهو من الأساليب التي لا تساهم في بناء شخصية التلميذ، بل تحصره في المعلومة التي يقدمها الأستاذ كمصدر أساسي لتلك المعلومة وكمحور للعملية التعليمية. وإذا ركزنا على المناهج الدراسية أكثر والتي لا تتوافق معظمها مع الواقع العملي، فنرى تلك المناهج التي تقيد عمل التلاميذ وتحصرهم في الإطار النظري الذي يتصف بالجمود على مستويين: إما أن يكون جامداً وغير عملياً في ذاته؛ أي أن هناك مشكلة في كيفية إعداد المنهاج نفسه ومدى توافقه مع الواقع العملي، أو أن هناك مشكلة في الكوادر المؤهلة -إن كانت كذلك- في طريقة توصيلها لهذا المنهاج وما يحتويه من معلومات إلى أذهان التلاميذ. وباعتبار تلك المناهج تشكل نوعاً من التربية الاجتماعية والتي تُعدّ وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان نحو الأفضل، وتقوم بمساعدته في تكوين شبكة علاقات اجتماعية ناجحة، فعندما لا تؤدي عملها بالشكل الصحيح، فإنها بذلك تصبح كما عبّر عنها مالك بن نبي "وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر، نسميه: المعجم." (بن نبي، 2013، صفحة 89) حيث يعكس الواقع أن معظم تلك المؤسسات التربوية وخاصة المدرسة أصبحت مقبرة بشكل أو بآخر لمستقبل التلاميذ، بفعل المنهاج الدراسي أو طريقة تطبيقه.

ونرى أن إشكالية المؤسسة التربوية ليست بحديثة، بل تم تناولها من قبل، حيث طرح المفكر (إيفيان إيلينش) (1926-2002) فكرة اللامدرسية، والتي يدعوا من خلالها إلى إلغاء المدارس، لأنّ نشاطها محكوم ببرنامج يتم تطبيقه حرفياً على التلاميذ، وهي لا تنجح في إعداد التلاميذ ذوا المهارات العمليّة، ولا في تشكيل العقليّة المبدعة الحرّة، "اللامدرسيون يؤمنون بأن المدارس العامة التقليدية تطبق على البشر منطق المصانع" "مقاس واحد يناسب الجميع"، لأنها تحصر قدراتهم ومهاراتهم في نطاق معرفي واحد

وتطالبهم بتعلم موضوع محدد بأسلوب محدد وبخطوات محددة وفي وقت محدد، بغض النظر عن شخصية المتعلم وقدراته وميوله." (الرويس، 2012)

ومضمون فكرة (ايليتش) هو إعطاء مجال للتلميذ في الإبداع والخروج عن نطاق المنهاج المدرسي، الذي يقيد من عدة جوانب، فالمدرسة حسبه تجعل من التلميذ حبيساً للمنهاج والمعلم معاً، فتنعدم شخصيته وتكبت حريته.

وعلى صعيدٍ آخر، فإن الصناعة أيضاً تشكل جزءاً كبيراً من واقعنا، بيد أننا نعتمد على استيراد المنتجات بدلاً من صنعها، فالفرق بين آلات الحضارة ومنتجاتها هو كالفرق بين الشجرة والثمرة... فإننا لا نعدو استعمال الثمرة لا الشجرة، ونشتري المنتجات دون الآلات" (موسى، 2013، صفحة 10)، حيث أننا لا نفتقر إلى الثروات بكل أشكالها، فالدول العربية غنية بما يكفي بثرواتها المتنوعة، ولكننا نفتقر إلى منطق العمل، الذي يدفع بعجلة التنمية لتحقيق الاكتفاء الذاتي وصولاً إلى الرفاه الاجتماعي، بينما نلاحظ أن ما هو حاصل فعلاً "إنما تراكمات تربية أنتجت ما يُعرف بالإنسان المسلم المتخلف" (نقيب، 2018، صفحة 310)، ويؤدي ذلك بالصناعة كركن أساسي في بناء الحضارة إلى خلل في تكوين تلك الحضارة بحد ذاتها، باعتبار "الحضارة تقوم على ساقين: إحداهما الكتب... والأخرى المصانع... الكتب تصنع للإنسان الغايات مثل الآداب والعلوم والفنون، وفي المصانع يصنع الإنسان الوسائل إلى هذه الغايات" (محمود، 2017، صفحة 39)، وعلى حد تعبير مالك بن نبي فإن الحضارة يُفترض أن تقوم على ركائزٍ ثلاث، عبّر عنها بالعوامل الثلاث؛ ألا وهي عالم الأشخاص وعالم الأشياء وعالم الأفكار، حيث تعمل تلك العوامل بطريقة متكاملة، فعالم الأشخاص المتمثل بالنماذج والقوى العاملة باعتباره مقياساً للحكم، هو من يحدد الهدف والغاية التي لا بد أن يصل إليها المجتمع، وعالم الأشياء يُسخر الوسائل اللازمة التي تحقق تلك الغايات، أما عالم الأفكار والذي يعتبر الحلقة الأهم فيتمثل التصورات والنماذج الإيديولوجية التي تحقق أهداف المجتمع

وتبرز فعالية الوسائل. وتكمن أهمية الأفكار باعتبارها المحرك الأساسي حتى وإن غابت أو ضعفت العوالم الأخرى فيإمكان الأفكار إعادة بنائها، كما هو الحال في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية التي خلّفت دماراً في عالم الأشياء وعالم الأشخاص، بينما استطاعت الوقوف مجدداً بفضل عالم الأفكار الذي أعاد بناء العوالم الأخرى، وجعلها ذلك في صدارة قائمة الدول المتقدمة.

4- التوجيه الفني (التقني)

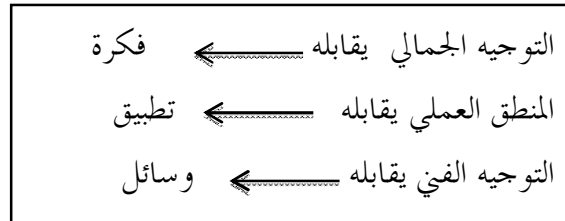
وفي هذا العنصر يشير مالك بن نبي إلى أهمية التوجيه الفني إلى جانب المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي والمنطق العملي، فحسب رأيه يجب أن نمثلك الوسائل التي تُمكننا من تكوين الثقافة، وأشار إلى هذه النقطة ابن خلدون باعتبار العلم والصناعة والتقنيات هي التي تعطينا تلك الوسائل، حيث أن كل من الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل تحت إطار التوجيه الفني، ذلك التوجيه الذي يقوم بدوره بربط العناصر الأربعة بعضها البعض، ويُنتج لنا ثقافة تُصبح فيما بعد أسلوب حياة لمجتمع معين تعكس هويته الثقافية.

وبالنسبة إلى المناهج التربوية من ناحية التوجيه الفني، فإننا نرى مبادرات ضعيفة وربما تصنّف كفردية إن كانت متمثلة بالفرد نفسه داخل المؤسسة التربوية، أو بالمؤسسة التربوية بين مجموعة المؤسسات التربوية الأخرى، وذلك للخروج عن الركود الذي حلّ بالمدارس العربية من ناحية الوسائل المنهجية والتقنية والفنية، فمعظمها تتبع أساليب بالية ويخرج منها التلميذ بقدر من المعلومات لا تؤهله حتى ليصبح مواطناً صالحاً أو فرداً فاعلاً في المجتمع، وتُعزز ذلك الانفصال بين المؤسسة التربوية والمجتمع، حيث يأخذ أحدهم في المدرسة درساً حول النظافة العامة، ونجده في ذات الوقت يُلقي القمامة في الشارع.

لم يغفل مالك بن نبي حول هذه الجزئية في طرحه الفكرة التالية: "وكثيراً ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائِباً في دموعه، بل لقد نرى الإمام نفسه وقد خنقته شهقاته وانفعالاته، ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته، بقيت (الحقيقة) التي زلزلت كيانه في المسجد ولم تتبعه إلى الشارع". (بن نبي، 2013، صفحة 105) فنرى هذا الانفصال لا يحدث فقط على مستوى المؤسسة التربوية والمجتمع، وإنما يتعداها إلى شتى مجالات الحياة، فنجد أحد رموز القدوة لدى الطفل كوالديه مثلاً يلقي عليه محاضرة في فن إدارة الوقت وهو بعيد كل البعد عن تطبيق ذلك، إذن يحدث هذا الانفصال في معظم الأحوال على المستوى الشخصي -ويُورَث أحياناً-، وذلك بترسيخ مبدأ التناقض للنفس والغير، حتى يصبح هذا التناقض أسلوباً للحياة لا يُرى على أنه نكرة أو تصرف خارج عن المألوف، ولننظر حولنا للحظة فإننا سنرى مجموعة من التناقضات تنهال علينا على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي.

يتضح التداخل هنا ما بين المنطق العملي والتوجيه الفني، حيث لا يمكن أن يحدث الثاني إلا بوجود الأول قبله، ولا يمكن أن يكون هناك منطقاً عملياً إلا إذا سبقه توجيهاً جمالياً ومبدأً أخلاقياً.

إذن يمكن تبسيط هذه الفكرة بالشكل التالي، الذي يوضح أهمية اجتماع العناصر الثلاثة لتحقيق التوجيه القيمي :



يوضح الشكل أهمية اجتماع عناصر الثقافة، من إعداد الباحثين

وباجتماع العناصر الثلاث يمكننا تطبيق الفكرة باستخدام وسائل مناسبة في إطار أخلاقي مُعَيّن، لا نعني هنا تطبيق الفكرة وحسب، إنما إن غاب الإبداع في تطبيقها يمكن أن تصبح أفكاراً تأخذ فيما بعد طابع التكرار أو حتى طابع الأفكار الميتة والمميتة، والتي أشار إليها مالك بن نبي في العديد من كتاباته، حيث يقول في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) أن ما نعانيه من "اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة، إنما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة، تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة التي يتعاضم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا". (بن نبي، 1986، صفحة 81)

وذلك كله في إطار فكرة الأصالة والمعاصرة، حيث نلاحظ في هذا السياق أن الصنف الأول والمتمثل بالأفكار الميتة بمعنى الأفكار البالية، يجسد فكرة الأصالة الخاطئة وذلك بالتمسك بما هو قديم دون مراعاة لأحداث العصر؛ بدعوى الحفاظ على العادات والتقاليد والتراث، بينما الصنف الثاني متمثل بالأفكار المميتة بهدف المعاصرة، حيث يتم استيرادها من النموذج الغربي والتي لا تمتاز بفعاليتها خارج سياقها الحضاري الغربي.

بينما ما دعا إليه مالك بن نبي هو الحفاظ على الأصالة بالارتكاز على نموذج عربي إسلامي أصيل يحاكي النموذج القديم، وفي الوقت ذاته يقدم حلولاً واقتراحات لمستجدات العصر الحديث، وذلك كله باعتماد النموذجين معاً وانتقاء أفضل ما فيهما، في صيغة واحدة تتوافر فيها الأصالة والمعاصرة.

هنا نصل إلى نتيجة مؤداها أن الأفكار لا بد أن تعاصر الواقع وفي نفس الوقت تأخذ طابع المرونة والإبداع، وهذا هو فحوى عناصر التوجيه الثقافي.

وبمعالجة جوانب التوجيه القيمي، تتحقق بذلك فكرة التوجيه بحد ذاتها، والتي دعا إليها مالك بن نبي مؤكداً على استغلال السواعد العاملة والأفكار ذات المنشأ العربي

الإسلامي، مشبهاً إياهم بالجهاز الذي يصل بالحضارة في نهاية المطاف إلى الهدف المقرر.

4. خاتمة:

وجد مالك بن نبي في إطار تصوره لمشروع الحضارة على أنه يتوجب على البلاد الإسلامية تهيئة الظروف الملائمة لتطبيق تصوراتها من حلول لمختلف المشكلات الاجتماعية، وطالما بقي المجتمع الإسلامي غير قادراً على إعادة صياغة عناصر الثقافة وفق ما يتماشى مع أسلوب حياته، فهذا يعني أن المجتمع لا يزال تابعاً غير مستقل عن الآخر، منسلخاً عن مبادئه الأساسية وقيمه الدينية، تلك التبعية التي تحيد من قدرته في تكوين إطار إبستمولوجي يليق بخصوصيته الاجتماعية ويسمح له ببناء عالم أفكار يعيده إلى مكانته الصحيحة ليحدد بذلك معالم منهجه الحضاري.

وفي هاته الحالة لا بد لنا أن نعيد النظر في عناصر الثقافة الأربعة: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والتوجيه الفني، وذلك بإعادة النظر في الظواهر الاجتماعية التي لطالما أصبحت بديهية في زمن تحوّرت فيه المفاهيم والأفكار.

قائمة المراجع:

- الإبراهيمي، أحمد طالب، (2008) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- الرويس، عزيزة سعيد، (2012)، في مفهوم اللامدرسية، مقال، جامعة الملك سعود ، الرياض، السعودية، 2012، <http://www.saudiacademics.com>
- بن نبي، مالك، (1986) وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الجزء الأول، دار الفكر ، ط5، دمشق، سوريا.
- ابن نبي، مالك، (2000) مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا.
- ابن نبي، مالك، (2013) شروط النهضة، ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر، الجزائر.
- ابن نبي، مالك، (2013)، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر.
- محمود، مصطفى، (2017)، رحال في أرض الله، دار المجدد للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر.

موسى، سلامة، (2013)، جيوبنا وجيوب الأجانب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
نقيب، عمر، (2018)، مدخل إلى علوم التربية رؤية بديلة، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، الجزائر.